2

الله

فى بداية الزمن، وُجِد أول إنسان (آدم بالعبرية) نفسه وحيدا، فى جنة عدن. كان الإله يهوه هو من زرع هذه الجنة، بأن جعل ينبوعا يتدفق فى الصحراء الشرقية كى يخلق هذه الواحة الفردوسية. وهناك، انقسم الينبوع إلى أربعة أنهار منفصلة – البيشون، الجيحون، ودجلة والفرات– التى نبعت من المركز المقدس لتمنح الحياة لبقية العالم. كان يهوه قد شكّل آدم من التراب (adama) ثم نفخ نفَس الحياة فى ثقبى أنفه وأقامه حارسا على الجنة. كانت عدن حقا أرض الملذات، وكان بالإمكان أن يحيا فيها آدم حياة نعيم مقيم. كان يهوه قد أتى بجميع الطيور والحيوانات من الأرض لترافقه، كان ثمة شجرتان مقدستان قائمتان فى مركز العالم – شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر – وكان هناك أفعى متكلمة كى تعرّفه على أسرار الجنة. لكن كان آدم يشعر بالوحدة. ومن ثم انتزع يهوه، فيما كان آدم نائما، أحد أضلاعه، وصنع أنثى. شعر آدم بالفرح:

«هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى. هذه تدعى امرأة [Isha] لأنها من امرئ [Ish] أُخذت» (تكوين ٢: ٢٣). أسماها آدم حواء أى «واهبة الحياة».

يذكرنا هذا على الفور بقصة اليوپانشاد عن الشخص البشرى الوحيد الذى ينقسم نصفين ليصبح ذكرا وأنثى، لكن من الواضح أن هذه حكاية شرق أوسطية مليئة بالموتيفات التقليدية: تشكيل آدم (آديم الأرض) من الطين، النهر الذى يروى أركان الأرض الأربعة، الشجرة المقدسة، الحيوان الناطق؛ إنها أسطورة فردوس مفقود نمطية. يحرّم يهوه على آدم وحواء أكل ثمر شجرة المعرفة، وتغريهما الأفعى على العصيان، ويطردان من الجنة للأبد. ومنذ آنذاك كان عليهما أن يكدحا كدحاً أليما لانتزاع ما يقتاتان به من

الأرض المعادية وأن ينجبا أطفالهما فى حزن وأسى. ومثل أية أسطورة، فإن هدفها مساعدتنا على التمعن فى المأزق الإنسانى. ما السبب فى أن الحياة البشرية مليئة بالمعاناة، بالعمل المضنى فى الزراعة، بولادة الأطفال الأليمة، والموت؟ لِمَ يشعر الرجال والنساء بكل هذا الاغتراب عن المقدس؟

يقرأ بعض المسيحيين الغربيين القصة على أنها سرد واقعى للخطيئة الأصلية الأولى التى قضت على الجنس البشرى بالهلاك الروحى الأبدى. لكن هذا تأويل مسيحى خاص طرحه على نحو خلافى القديس أوغسطين من هيبون (الجزائر) فى مطلع القرن الخامس. لم تُفهم قصة الجنة هكذا أبدا فى الموروثات اليهودية أو المسيحية الأرثوذكسية. بيد أننا نميل إلى النظر إلى تلك الحكايات القديمة من خلال فلتر التاريخ اللاحق ونُسقط المعتقدات الراهنة على

نصوص كانت تعنى فى الأصل شيئاً مختلفا تماما. واليوم، ونظرا لأن الغرب الحديث مجتمع عقلانى، يقرأ البعض الإنجيل قراءة حرْفية ، ويفترضون أن القصد منه هو إمدادنا بمعلومات دقيقة كتلك التى نتوقعها من أى نص يُفترض أنه تاريخى، وأن هذه القصص كانت قد ظلت دائماً تُفهم بهذا الأسلوب. وفى الواقع، وكما سنرى فى الفصول اللاحقة، فإنه، وحتى وقت متأخر فى العصر الحديث، كان اليهود والمسيحيون يصرون على أنه من غير الممكن، أو المرغوب، قراءة الإنجيل بهذا الأسلوب وأنه لا يمنحنا رسالة وحيدة معتمدة بل يتطلب تأويلا لا يتوقف.

أيضا، ثمة افتراض واسع الانتشار بأن الإنجيل يمدنا بنماذج بشرية تُحتذى، وبتعليمات أخلاقية محددة مفصلة، لكن لم يكن هذا هو مقصد كتبة الإنجيل. فمن المؤكد أن قصة الجنة ليست قصة أخلاقية تحذيرية، ومثل أية أسطورة فردوسية، فهى سرد تخيلى عن طفولة الجنس البشرى. مازال آدم وحواء، وهما بالجنة، فى الرحم، وعليهما أن ينضجا، وتقوم الأفعى بارشادهما لاجتياز طقس المرور إلى النضج. فمعرفة الألم، والوعى بالرغبة، والفناء هى مكونات للخبرة البشرية لا مفر منها، لكنها أيضا أعراض للحِس بالاغتراب عن اكتمال الكينونة الذى ألهم الحنين إلى الفردوس المفقود. باستطاعتنا النظر إلى آدم وحواء والأفعى على أنهم يمثلون أوجها مختلفة من حالتنا البشرية. تمثل الأفعى التمرد والهاجس القسرى الذى لا يتوقف لمساءلة كل شىء حاسم التقدم البشرى، ونرى فى حواء التعطش للمعرفة، والرغبة فى التجربة، وتوقنا إلى حياة خالية من النواهى والمحرمات. أما آدم فهو شخصية على قدر من السلبية ويُظهر ممانعتنا لتحمل مسئولية أفعالنا. توضح القصة أن الخير والشر متناسجان فى الحياة البشرية بأسلوب لا ينفصم. باستطاعة

معرفتنا الهائلة أن تكون مصدرا للفائدة وسببا للضرر الجسيم فى آن. فهم حاخامات العصر التلمودى ذلك جيدا ولم ينظروا إلى «سقوط» آدم ككارثة لأن «النزوع إلى الشر yeytzer ha'ra» جزء جوهرى من الحياة البشرية، والعدوانية والعنف، وحدة التنافس، والطمع الناجم ترتبط كلها ببعض أعظم إنجازاتنا.

ارتبطت نشأة الكون، فى ملحمة الإنوما إليش Enuma Elish البابلية بإنشاء الآلهة لزجورة «زقورة» إساچيلا. كانت عملية الخلق، فى الشرق الأوسط القديم ترتبط بانتظام ببناء المعابد، وأسطورة سفر التكوين أيضا ترتبط عن كثب بالمعبد الذى بناه سليمان (٩٧٠- ٩٣٠ ق . م) فى القدس: أحد الأنهار الأربعة التى تنبع من الجنة هو نهر «جيحون»، أسفل ما يُسمى «جبل المعبد». كانت تيمة عملية الخلق التى قام بها يهوه مهمة فى طقوس العبادة بالمعبد، لا لأنها كانت تمد العابدين بمعلومات عن أصل الكون بل لأن بناء المعبد كان تكراراً رمزيا لنشأة الكون. وبهذا، فقد مكّن بناؤه البشر من المشاركة فى قوى الآلهة الخلاقة، وضمن أن يحارب يهوه أعداء الإسرائيليين، تماما كما كان قد قتل «فى البدء» وحوش البحار وتنيناته. كان المعبد، لدى الإسرائيليين، رمزا للكون الأصلى المتناغم كما صممه يهوه فى البداية. من ثم، فإن وصف الحياة بالجنة قبل «السقوط» تعبير عن shalom، الحس بـ «السلام» و«الوحدة» و«الاكتمال» التى كان الحجاج إلى المعبد يخبرونه حينما يشاركون فى الطقوس ويشعرون أن انفصالهم عن المقدَّس قد شُفِى وقتيا.

ليست قصة جنة عدن سردا تاريخيا، الأحرى أنها وصف لتجربة طقوسية. تعبر عما يسميه الأكاديميون «تناغم المتناقضات coincidentia opposit-orum»، حيث يحدث أثناء لقاء مفعم مع المقدس أن تتناغم الأشياء التى من

المعتاد أن تبدو متناقضة وتكشف بهذا عن وحدة تحتية. لم يكن ثمة اغتراب فى الجنة بين المقدس والبشرى. بل كانا فى نفس «المكان»: «وسمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله وسط شجر الجنة» (تكوين ٣: ٨). ليس ثمة تناقض بين «الطبيعى» و«ما فوق الطبيعى» وذلك لأن نفس الرب ذاته هو من بعث بالحياة فى آدم. لم يبد آدم وحواء مدركيْن للتمايز بين نوعيهما أو للفرق بين الخير والشر. وهذا ما كان من المفترض أن تكونه الحياة. بيد أنه، وبسبب خطيئتهما، وقع آدم وحواء فى الحالة المتشظية لوجودنا الراهن، وطُردا من الجنة، وأوصدت أبوابها فى وجهيهما بواسطة كروبين (ملكين) «ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» (تكوين ٣: ٢٤) وعلى ما يبدو، فقد صُمم معبد سليمان ليكون نسخة من الجنة، «وبنى عشرين ذراعا من مؤخر البيت بأضلاع أرز من الأرض إلى الحيطان وبنى داخله لأجل المحراب أى قدس الأقداس. وأربعون ذراعا كان البيت أى الهيكل الذى أمامه، وأرز البيت من الداخل كان منقورا على شكل قثاء وبراعم زهور. الجميع أرز. لم يكن يُرى حجر. وهيأ محرابا فى وسط البيت ليضع هناك تابوت عهد الرب. ولأجل المحراب عشرون ذراعا طولا وعشرون ذراعاً عرضا وعشرون ذراعا سمكا. وغشاه بذهب خالص. وغشى المذبح بأرز. وغشى سليمان البيت من الداخل بذهب خالص. وسدّ بسلاسل ذهب قدم المحراب. وغشاه بذهب. وجميع البيت غشاه بذهب إلى تمام كل البيت وكل المذبح الذى للمحراب غشاه بذهب وعمل فى المحراب كروبين من خشب الزيتون علو الواحد عشر أذرع. وخمس أذرع جناح الكروب الواحد وخمس أذرع جناح الكروب الآخر. قياس واحد وشكل واحد لكروبين. علوّ الكروب الواحد عشر أذرع وكذا الكروب الآخر. وجعل الكروبين فى وسط

البيت الداخلى وبسطوا أجنحة الكروبين فمسّ جناح الواحد الحائط وجناح الآخر مس الحائط الآخر وكانت أجنحتهما فى وسط البيت يمس أحدهما الآخر. وغشى الكروبين بذهب» (ملوك ١: ١٥– ٣٨). زُينت شمعداناته الضخمة ذات الأذرع السبعة باللوز والبراعم حتى بدت كالأشجار، بل كان أيضا ثمة أفعى مصنوعة من البرونز. وكما كان الحال فى الجنة، أقام يهوه بالمعبد بين شعبه. من ثم، كان المعبد ملاذا للسلام shalom. حينما كانت جحافل الحجيج تتسلق منحدرات «جبل صهيون» لتدخل بيت يهوه، كانت تنطلق صيحات الفرح والمديح المنتشية، كانوا يتوقون إلى الوصول إلى ديار يهوه ويَصبُون إليها. كان الوصول إلى المعبد يماثل العودة إلى الموطن. وفيما كانوا يشاركون فى الطقوس، كانوا يخبرون صعودا روحانيا «من ذروة إلى ذروة» وبدت الحياة أكثر ثراء وزخما «تشتاق بل تتوق نفسى إلى ديار الرب. قلبى ولحمى يهتفان بالإله الحى. العصفور أيضا وجد بيتا واليمامة عشا لنفسها حيث تضع أفراخها، مذابحك يا رب الجنود ملكى وإلهى ... عابرين فى وادى البكاء يعتبرونه ينبوعا. أيضا ببركات يكسبه المطر المبكر.. لأن يوما واحدا فى ديارك خير من ألف. اخترت الوقوف على العتبة فى بيت إلهى على السكن فى خيام الأشرار» (المزمور الرابع والثمانون: ٢، ٣، ٦، ١٠).

لم يكن الإسرائيليون فى القرن الثامن ق. م قد بدأوا فى استبطان دينهم وكانوا مازالوا يعتمدون على الطقوس الخارجية. كانوا آنذاك يعيشون فى مملكتين منفصلتين: مملكة يهودا بالجنوب (الضفة الغربية) وعاصمتها القدس، ومملكة إسرائيل الأكثر ازدهارا فى الشمال. يكاد يكون من المؤكد أن من كتب قصة آدم وحواء هو كاتب مجهول فى المملكة الجنوبية فى الوقت الذى كان الملوك قد بدأوا يُكلّفون الكتبة بتأليف أساطير يضعونها فى

سجلاتهم الملكية، وكان ذلك فى القرن الثامن ق. م. يشير الباحثون إلى ذلك الكاتب بالحرف «J» أو «sy» بالعبرية لأنه عرف إلهه باسمه «يهوه». وفى نفس الوقت كان ثمة كاتب يعرف بالحرف «E» (لأنه كان يفضل استخدام اللقب الإلهى الرسمى (إلوهيم)) يؤلف أسطورة مماثلة لمملكة إسرائيل الشمالية. وبعد أن دمر الآشوريون المملكة الشمالية عام ٧٢٢ ق. م، أدمِجت القصتين فيما أصبح يعرف بسرد JE، الذى يشكل أول مراحل الإنجيل (العهد القديم أو التوراة).

إذن، فمنذ البداية، لم يكن ثمة رسالة وحيدة معتمدة بالإنجيل: فسر كل من J وE تاريخ الإسرائيليين تفسيرين مختلفين. وحافظ المحققون والكتبة فيما بعد على تلك الاختلافات. لم يكن ثمة ما هو بالغ القداسة حول تلك النصوص، وكانت الأجيال اللاحقة تشعر بحرية إعادة كتابة ملحمة JE، بل وحتى إدخال تغييرات كبيرة على القصة. يكاد يكون من المؤكد أن الأحداث التى رواها JE وفقا لتسلسل زمنى معين، هى مجموعة من الحكاوى التى كانت تُتلى فى الأعياد القبلية القديمة. منذ حوالى عام ١٢٠٠ ق. م، كانت تجمعات القبائل التى أطلق عليها اسم «إسرائيل» تجتمع للعبادة فى عدد من الأضرحة فى الأراضى المرتفعة الكنعانية فى القدس، الخليل، بيت إل Bethel شيشم shechem، جلجال Gilgal، وشيلوه Shiloh – حيث كانوا يجددون المعاهدة الميثاقية التى كانت تربطهم ببعضهم. كان المُغنون الشعبيون يتلون قصائد عن مآثر الأبطال المحليين: إبراهام، إسحق، ويعقوب، موسى الذى قاد قومه خارج الاستعباد المصرى، وقائدهم العسكرى العظيم يشوع. ربما لم تكن ثمة قصة رئيسية فى البداية، لكن حينما ربط J وE تلك الحكاوى المحلية ببعضها، قاما بنسجها معا وجعلا منها ملحمة متكاملة أصبحت إحدى القصص المؤسِّسة فى الثقافة الغربية.

فى شكلها النهائى، تروى القصة كيف أنه فى حوالى عام ١٨٥٠ ق. م، طلب يهوه من إبراهام أن يغادر موطنه فى بلاد ما بين النهرين ويستقر بكنعان ووعده بأنه سيصبح والد أمة قوية عظيمة ستمتلك الأرض يوما. عاش إبراهام، وابنه إسحق، وحفيده يعقوب (الذى يعرف أيضا بإسرائيل) فى الأرض الموعودة كأغراب مقيمين، لكن أُجبر أبناء يعقوب الاثنا عشر، مؤسسو قبائل إسرائيل الاثنتى عشرة أثناء إحدى المجاعات، على الهجرة لمصر. فى البداية، ازدهرت أحوالهم هناك، لكن المصريين، فى نهاية المطاف، وبعد أن تنامت أعداد بنى إسرائيل شعروا بالتهديد، فقمعوا الإسرائيليين واستعبدوهم إلى أن أمر يهوه موسى أن يقود قومه عودة إلى كنعان. وبمساعدة يهوه الإعجازية، تمكنوا من الهروب من مصر وعاشوا رُحّلا فى أقفار سيناء وتيهها لأربعين عاما. وعلى جبل سيناء، سلم يهوه تعاليمه (التوراة) إلى موسى وتبنى الإسرائيليين شعبا مختارا له. توفى موسى على جبل الفسجة Nebo على أعتاب الأرض الموعودة ولم يدخلها، لكن، فى النهاية وفى حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد فتح يشوع كنعان وطرد سكانها الأصليين خارجها.

بيد أن الحفريات التى قام بها علماء الآثار الإسرائيليون منذ عام ١٩٦٧ لم تُثبت صحة هذه القصة. لم يجدوا أثرا للدمار الشامل الذى وُصف فى سفر يشوع ولا أية إشارة أو دليل على تغيير يُذكر فى السكان. يبين هؤلاء أن القصص الإنجيلية تعكس الأحوال فى القرون الثامن والسابع والسادس قبل الميلاد، حينما صيغت تلك القصص كتابة، لا الزمن الذى حدثت فيه وقائع تلك القصص. لم يكتب J وE، سردا دقيقا لأحداث واقعية. وهذا الإدراك الجديد سيؤثر على الأسلوب الذى به نقرأ القصص الإنجيلية. أثناء عصر التنوير الفلسفى فى القرن الثامن عشر، طوّر الغربيون منهجا تاريخيا، يهتم قبل كل

شيء، بتقديم سرد دقيق للأحداث كما وقعت. لكن حينما كان الناس يكتبون عن الماضي، في العالم القديم، كان اهتمامهم ينصب قبل كل شيء على معنى الأحداث، لا على ما حدث بالفعل. حينما أدمج كتبة أسفار موسى الخمسة Pentateuch (أول خمسة أسفار من الإنجيل) قصص J وE معا، لم يبذلوا أية محاولة لإزالة الاختلافات بينهما والتي تتسبب الآن في قلق المحققين والمراجعين المحدثين. مثلا، إذا دققنا في النص، نجد أن J رأى إبراهام، الذي كان ينتمي لمملكة الجنوب، هو بطل إسرائيل الأول، ولم يخصص وقتا كافيا لموسى، الذي كان ذا شعبية عارمة في الشمال وأحد أهم أبطال E. كما أن J وE لم يبذلا أي جهد لتفحص تاريخ كنعان، لكنهما اكتفيا بتعديل القصص القديمة لتلائم ظروف زمانهما.

من ثم، فمن الخطأ أن نتوقع أن تكون تلك الأسطورة دقيقة تاريخيا بالمعنى الحديث. بيد أنه من الحقيقي أن كاتبي الإنجيل هذين اهتما بالتاريخ البشري بدرجة تفوق غالبية معاصريهما. لم يلقيا بالاً إلى أساطير النشوء التي كانت تبهر جيرانهما في سوريا وبلاد الرافدين، ولم يكونا مسئولين عن قصة الخلق التي وردت في الإصحاح الأول من سفر التكوين، والتي لم تُكتب حتى القرن السادس قبل الميلاد. نجد أن J يسرد خلق يهوه للجنة بلا مبالاة، ولم يسهم E بإطلاقه في «ما قبل تاريخ» الإسرائيليين كما ورد في الأحد عشر إصحاحا الأولى من سفر التكوين، بل إنه يبدأ تأريخه بالبطاركة، أي حينما يبدأ تاريخ إسرائيل الفعلي. ومن المؤكد أنه كانت ثمة حكايات في إسرائيل عن يهوه وهو ينشئ الكون بمحاربته وحوش البحار، مثل آلهة الشرق الأوسط الأخرى، لكن J وE تخطيانها. من ثم، بالإمكان القول، إنه في البدايات الأولى للإرث التوحيدي، فإن مبدأ الخلق المقدس ومعتقداته، التي ستكتسب أهمية كبيرة فيما بعد، بدت هامشية.

وفى الحالات التى يشير فيها الكاتبان بالفعل إلى أساطير النشوء القديمة، فإنهما يستخدمانها لدعم معنى الأحداث التاريخية وتعزيزها. إحدى أشهر قصص المعجزات فى الإنجيل العبرانى هى قصة عبور الإسرائيليين البحر أثناء فرارهم من مصر، فيما جيش فرعون يطاردهم. حينما وصلوا إلى الشاطئ، مد موسى يده فوق الماء وأرسل يهوه رياحا شرقية عاتية «وجعل البحر يابسة وانشق الماء فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم» (خروج ١٤: ٢١- ٢٢). وحينما وصلوا إلى الجانب المقابل أغرقت المياه المصريين ولم ينج أحد منهم. ظلت هناك محاولات حسنة النية لإثبات أنه بالإمكان تفسير تلك القصة بحدوث تسونامى أو فيضان خاطف الذى كان أمرا شائعا فى تلك المنطقة. لكن تلك التفسيرات تغفل تماما عن الفحوى والهدف، لأن تلك القصة كانت قد كُتبت، عن عمد، بصفتها أسطورة. وكما نعلم جيدا، تكثر فى الشرق الأوسط القديم القصص عن الآلهة التى تشق البحار لتخلق العالم، لكن فى هذه الحالة فنحن لا نشهد مولد الكون، بل مولد شعب.

بعد قصة العبور مباشرة أدخل الكاتبان على السرد نصا أكثر قِدما بكثير يعرف باسم «أغنية البحر» وهى قصة من القرن العاشر ق. م وأنطقا بها موسى:

أُرتّم للرب فإنه قد تعظم

الفرس وراكبه طرحهما فى البحر

(خروج: ٢٠- ١)

لكن توضح القراءة الدقيقة أن الترنيمة كانت فى الأصل تحتفل بحادث

مختلف تماما، بانتصار لدى نهر الأردن على حدود كنعان. تصف يهوه يقود شعبه داخل الأرض الموعودة ويُنزل الغضب والاستياء، لا فى قلوب المصريين، بل سكان كنعان وممالك ضفة نهر الأردن الشرقية:

يسمع الشعوب فيرتعدون

تأخذ الرعدة سكان فلسطين

حينئذ يندهش أمراء آدوم

أقوياء موآب تأخذهم الرجفة

يذوب جميع سكان كنعان

(خروج ١٥: ١٤– ١٥)

يعتقد الباحثون أن الترنيمة كانت تُغَنَّى أصلا فى عيد الربيع بجلجال Gil-gal حيث كان يقال إن مياه نهر الأردن انشقت بمعجزة أمام الإسرائيليين لتمكنهم من الدخول إلى الأرض الموعودة (يشوع ٣: ١– ٥: ١٥) – وهو حادث يخلط تماما بين «ملوك الأموريين على الضفة الغربية للأردن وبين جميع الملوك الكنعانيين فى المنطقة الساحلية». كان طقس العبور (pesah) هذا، يعاد تمثيله كل عام بمدينة جلجال لدى فيضان نهر الأردن. كان الكهنة والعامة يسيرون فى موكب، يجتازون مياه الفيضان ويدخلون المعبد حيث يأكلون الخبز غير المخمر (mazzoth) والذرة المشوية إحياء لذكرى أسلافهم حينما ذاقوا غلة الأرض لأول مرة. من ثم، يمكن القول، إن أساطير النشوء القديمة، لم تعمل فقط على تشكيل فهم الإسرائيليين لتاريخهم، بل إن الطقوس القديمة لجلجال ساعدتهم أيضا على تشكيل أسطورة الخروج من مصر. وباستثناء عدم الاهتمام بقصة نشوء الكون، فلم تختلف ديانة إسرائيل

القديمة حتى ذلك التاريخ اختلافا مهما عن ديانات جيرانهم. فنرى إبراهام، فى سرد E وJ يعبد إيل، الإله العالى المحلى، ويبدو أن يهوه كان فى الأصل أحد الشخصيات المقدسة فى حاشية إيل. لكن الإسرائيليين، وحتى القرن السادس ق. م، كانوا أيضا يعبدون آلهة أخرى هذا على الرغم من مجهودات مجموعة صغيرة من الكهنة والأنبياء الذين كانوا يدعونهم لعبادة يهوه وحده. فيما بعد، سيشجب الإسرائيليون الديانات الوثنية للسكان الكنعانيين الأصليين بأقوى العبارات، لكن لا يبدو وأنه كان هناك مثل هذا التوتر فى زمن J وE. مثلا، يسجل كل منهما الأسطورة المؤسسة لمعبد «بيت إيل»، التى هى إحدى أشهر قصص سفر التكوين (٢٨: ١٠– ٢٠): أُجبر يعقوب، بسبب شجار عائلى على الفرار من كنعان والالتجاء إلى بلاد الرافدين لدى أقاربه. وفى المرحلة الأولى لرحلته، قضى الليل فى «لوز» على تخوم الأرض الموعودة فى بقعة بدت له غير مميزة لكنها فى الواقع كانت ضريحا كنعانيا maqom. وفى تلك الليلة، وربما لأنه استوسد إحدى حجارة الضريح المقدسة، رأى يعقوب رؤيا مبهمة: «ورأى حلما وإذا سلّم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء. وهوذا ملائكة الله صاعدة نازلة عليها. وهوذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق. الأرض التى أنت مضطجع عليها أُعطيها لك ولنسلك» (تكوين ٢٨: ١٢– ١٣). استيقظ يعقوب وقد تملكته الدهشة «وقال حقا إن الرب فى هذا المكان ولم أعلم. وخاف وقال «ما أرهب هذا المكان. ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء» «(تكوين: ٢٨: ١٦– ١٧). وقبل أن يكمل رحلته «أخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقام عمودا وصب زيتا على رأسه. ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل. ولكن اسم المدينة كان لوز» (تكوين ٢٨: ١٨– ١٩). حاولت أجيال إسرائيل التالية محو أماكن تلك

العبادات بصفتها وثنية وهدم العمود القائم matzeboth. لكن فى هذه القصة المبكرة، فقد أثرت تلك الرموز الوثنية رؤيا يعقوب ليهوه، وأصبح بيت إيل أحد «مراكزهم» المقدسة.

توضح القصة استحالة السعى إلى استخلاص رسالة واحدة متسقة من الإنجيل، حيث من المحتمل أن تناقض فحوى أحد الإصحاحات فحوى إصحاح آخر. سجل الكاتبان تعاليم مبكرة أصبحت محرجة وتصادمت مع التعاليم التى وردت بعد ذلك، حيث كان اليهود، فيما بعد، يُصدمون لمجرد تخيل تجسد الرب فى هيئة إنسان، لكن J وصف يهوه وهو يظهر لإبراهام متخفيا كمسافر عند بلدة ممرا بالقرب من الخليل (تكوين ١٨: ١- ٢٣). رأى إبراهام، وهو واقف بمدخل خيمة فى قيظ ما بعد الظهيرة ثلاثة رجال يقتربون. وعلى الرغم من أن الأغراب كانوا يُعتبرون خطرين لأنهم لم يكونوا يلتزمون بالأعراف المحلية إلا أن إبراهام أسرع للقائهم، وانحنى لهم وكأنهم ملوك أو آلهة وأدخلهم وقدم لهم الطعام. يتضح فيما يلى من حديث هادئ، أن أحد الزائرين كان إله إبراهام. فقد أدى فعل التراحم الذى أتى به إبراهام إلى لقاء مع المقدس. كانت لقاءات إبراهام السابقة مع يهوه على قدر من الإرباك والحسم، لكن فى لقاء ممرا تناول يهوه الطعام مع إبراهام كصديق - أول تلاق حميمى بين المقدس والبشر منذ الطرد من الجنة.

بيد أنه، لم يقصد J وE كتابة قصص أخلاقية تعليمية، وعلى الرغم من أن شخصيات سفر التكوين يَخبرون رؤى، ويُبدون آراء ثاقبة، لكنهم يقدّمون بصفتهم بشرا خطائين عليهم الجدال مع إله محير. يظهر هذا بجلاء حينما يأمر يهوه إبراهام باصطحاب إسحق، ابنه الوحيد المتبقى إلى جبل بأرض المُريّا وذبحه أضحية هناك. كان إبراهام حتى آنذاك، لا يتردد فى مساءلة

ترتيبات يهوه، لكنه أطاع هذه المرة دونما أى اعتراض. ربما أن الصدمة كانت قد ألجمت لسانه، وربما أيضا أن الشكوك قد خالجته من أن الرب الذى عبده طوال هذا الوقت كان قاسيا يأمر بذبح الأطفال وينكث بعهده لجعله أباً لأمة عظيمة بالطبع. يعفى الرب إبراهام من ذبح ابنه ويضحى إبراهام بكبش بدلا منه. تقليديا، ارتبطت هذه القصة المحيرة بمعبد القدس الذى قيل إنه أقيم على جبل مُوريا وفُهم مغزى القصة على أن يهوه قد أوضح بأسلوب لا لبس فيه أنه لا يجوز لشعائر عبادته أن تشمل أضحيات بشرية. لكن قصة E الأليمة تتخطى هذا. يعنى لفظ «موريا» الإبصار ويتكرر الفعل العبرى ra'o (يرى) كثيرا فى قصص إبراهام. فعلى الرغم من أن إبراهام يقدَّم بصفته رجلا ذا بصيرة، إلا أن قصص سفر التكوين توضح مدى صعوبة «رؤية» المقدس أو فهمه فيما نحن نصارع معضلات الحياة القاسية.

لاتوجد صورة واضحة متسقة للرب بسفر التكوين. فى الإصحاح الأول الشهير، يحتل الرب الخالق المركز، بدون منافس، كلىّ القوة والخير. يبارك جميع الأشياء التى صنعها. لكن تبدو بقية سفر التكوين وأنها تفكك هذه النظرة اللاهوتية فالرب الذى كان كلىّ السيطرة فى الإصحاح الأول يفقد سيطرته على خليقته فى الإصحاحين التاليين، والرب العادل غير المتحيز الذى بارك الأشياء جميعها دونما تمييز بينها يصبح محابيا بجلاء، كما أن اختياراته الاعتباطية (نادرا ما يكون أشخاصه المختارون نموذجيين) أثارت البغضاء بين البشر وحرضتهم على بعضهم بأسلوب قاتل. أما فى وقت طوفان نوح، فإن الخالق الخيّر يصبح مدمِّرا قاسيا. وفى النهاية، يضمحل حضور الرب الذى كان طاغيا فى الإصحاح الأول، ولا يعود للظهور، حتى أنه كان على يوسف وإخوته، فى آخر الإصحاح، الاعتماد على أحلامهم وصورهم

الخاصة دونما مساعدة من الرب – تماما كما نفعل نحن الآن. يوضح سفر التكوين أن بإمكان نظراتنا الخاطفة لما نسمية «الرب» أن تكون جزئية، متحيزة، رهيبة ملتبسة ومتناقضة مثل العالم الذى نحيا فيه. وكما توضح محنة إبراهام على جبل موریاه، فليس من السهل أن «نرى» كينونة الرب، كما أنه ليس ثمة إجابات بسيطة عن معضلات الحياة.

يتقصى الإنجيل المسيرة الطويلة التى من خلالها يصبح هذا الإله المربك أيقونة إسرائيل الوحيدة للمقدس. تقليديا، كان من المستحيل فى الشرق الأوسط القديم قصر قداسة («الرب ilam) على رمز أوحد. فقد كان يُرى أن أية صورة واحدة للرب لا بد وأن تكون غير كافية إذ يستحيل لها التعبير عن الحقيقة الكلية الشاملة للكينونة ذاتها. من ثم، إذا، لم توازن برموز أخرى فقد يفكر الناس فى المقدس بأسلوب بالغ التبسيط. أما إذا كان الرمز إلها مشخصناً، يصبح بإمكانهم، بسهولة، تخيله يعمل وكأنما هو إنسان مثلهم، رغم اختلاف المكانة والسطوة، يحب ويكره كما يفعلون. فيما بعد، ستصبح الوثنية، أو عبادة صورة بشرية للمقدس، إحدى المشاكل التى واجهت الديانات التوحيدية. وبالفعل، نرى فى الإنجيل أن عبادة الأغيار للأوثان كانت مدعاة لقلق الإسرائيليين وحيرتهم إذ إنهم كانوا يرون تلك الأوثان هى مجرد فضة وذهب صاغتها المهارات البشرية. لكن من المحتمل أيضا أن حساسية إسرائيل للوثنية كانت ناجمة عن قلق خفى، إذ إنه بمجرد أن ينسى الناس أن صورة المقدس لا يمكن أن تكون سوى تقريبية غير كاملة، فهناك خطر أن تصبح الأوثان هدفا فى حد ذاتها لا صورا تقرب البشر من الرب.

أصبح هذا واضحا أثناء القرن السابع ق. م، حينما حاولت مجموعة من الكهنة، والكتبة، والأنبياء فى بلاط يوشيا Jasiah ملك يهودا إصلاح دين

إسرائيل، ويعرف هؤلاء باسم التثنويين deuteronomists لأنهم فى سفرهم (التثنية) صوروا موسى يسلِّم «قانونا ثابتا» إلى الناس المتجمعين قبيل وفاته مباشرة. لمدة مائتى عام كانت المنطقة تعانى من إرهاب الإمبراطورية الآشورية التى هزمت مملكة إسرائيل الشمالية وسبت أعداداً كبيرة من سكانها. لكن حينما أصبح الصبى يوشيا ملكا عام ٦٤٩ ق. م، كانت إمبراطورية الآشوريين فى حالة اضمحلال وكان المصريون يجبرون قواتها على الرحيل من المشرق (بلاد الشام). لكن آنذاك بالتحديد، كان الفرعون مشغولا تماما بدرجة أنه لم ينتبه لمملكة حيث ظهرت طفرة من المشاعر القومية وتوق إلى الاستقلال. كان أسلاف يوشيا قد وجدوا أنه من المقبول تماما استرضاء الآشوريين بدمج آلهتهم فى عبادة المعبد، لكن كتبة سفر التثنية أصروا على عبادة يهوه قصريا. «اكتشفوا» لفافة وزعموا أنها سفر القانون المفقود (سفر التوراة) الذى كتبه موسى ولم يُفعَّل أبدا ويحتمل أن كانت تلك نسخة مبكرة من سفر التثنية. حينما قرأوه على يوشيا مزق ثيابه أسىً، ووجد أنه لا عجب فى أن إسرائيل قد عانت من تلك الكوارث! فقد ظل الملوك على مدى قرون يتغاضون عن ممارسات حرَّمها يهوه بوضوح. كشف سفر التوراة ذلك أن يهوه كان قد أمر الإسرائيليين بعدم التعامل مع سكان كنعان الأصليين، وعدم عقد معاهدات معهم، والقضاء على دينهم: «ولكن هكذا تفعلون بهم تهدمون مذابحهم وتكسِّرون أنصابهم وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار» (تثنية ٧: ٥).

قام يوشيا بتنفيذ تلك التعليمات حرفيا، ومَحا كل آثار الديانات المنافسة بالقدس، وأيضا، قام بهدم أضرحة يهوه القديمة القروية خشية أن تزحف الممارسات الوثنية دون أن يلاحظها أحد. ثم قام، باجتياح أراضى مملكة

إسرائيل السابقة التى كان الآشوريون قد جلوا عنها مؤخراً، ولم يقم فقط بتدمير كل مكان كنعانى مقدس (maqom) ومعها معابد يهوه فى بيت إيل والسامرة لكنه أيضا قتل الكهنة الريفيين ودنّس مذابحهم. ومنذ آنذاك، غدا هيكل سليمان بالقدس الضريح القومى الشرعى الوحيد. لم يقنع كتبة التثنية «D» بطقوس التدمير تلك، بل قاموا أيضا بإعادة كتابة تاريخ إسرائيل، وأدخلوا إضافات مهمة – إلى سرد JE بحيث أبرزوا دور موسى الذى حرر قومه من مصر فى وقت كان يوشيا يحاول فيه أن يستقل عن الفرعون، ووسعوا الأسطورة لتحوى قصة غزو يشوع للأراضى المرتفعة الشمالية، التى كان يوشيا (يشوع الجديد) قد قام لتوه بزعم ملكيتها.

يبدو سفر التثنية، فى بعض أوجهه، مثل وثيقة حديثة. فلو تم تفعيله، لشمل برنامج المصلحين إنشاء مجال علمانى، ونظام قضائى مستقل عن الدين، وأيضا مَلَكية دستورية تجعل الملك خاضعا للتوراة شأنه شأن أى مواطن آخر، ودولة ذات حكومة مركزية لها ضريح قومى واحد. عقلن المصلحون أيضا اللاهوت الإسرائيلى ونقّوه من العناصر الأسطورية الخرافية. رأوا أن ليس بوسع أحد استغلال الإله واسترضاؤه بتقديم الأضحيات، وأن الرب لا يسكن المعبد، الذى أصبح مكانا للصلاة بدلا من «مركز» مقدس كما كان سابقا.

لكن الأيديولوجيا العقلانية لم تكن بالضرورة أكثر تسامحا وقدرة على الصمود من نظيرتها الأسطورية. كشف إصلاح كتبة سفر التثنية عن أعظم المخاطر للنكوص إلى الوثنية. فهم بجعلهم إلههم القومى، الذى غدا الرمز الوحيد للمقدس، يصادق على الإرادة القومية، فقد شكلوا بذلك إلها على صورتهم. فى الماضى، كانت الإلهة تيمات دائماً تتحدى سلطة مردوخ وكان الإله موت يتحدى بعل. كان المقدس بالنسبة لـ J وE مبهما بدرجة كان من

المستحيل معها للفرد أن يتخيل أن يهوه كان دائماً يسانده، أو أن يتنبأ بما سيفعله بعد ذلك مباشرة. لكن لم يكن لدى كهنة سفر التثنية وكتبته أدنى شك فى أنهم يعرفون على وجه التحديد ما يرغب فيه يهوه وشعروا أن واجبهم المقدس هو تدمير أى شىء يتعارض مع مصالحه / مصالحهم. حينما تُضفى على شىء محدود متغير بطبيعته – صورة، أيديولوجيا، أو نظام للحكم – قيمة مطلقة يشعر أتباعه أن عليهم القضاء على أى مُدّعٍ منافس، لأنه لا يمكن وجود سوى مطلق واحد. من ثم، فإن نمط التدمير الذى يصفه كتبة التثنية هو دلالة لا يمكن إخطاؤها على أن رمزا مقدساً قد غدا وثنيا.

كانت رؤية أتباع سفر التثنية قد تأثرت بعنف زمانهم. ففى حوالى نفس الوقت الذى كان فيه حكماء الهند قد بدءوا يجعلون من «اللاعنف ahisma» جوهر المسعى الدينى، صوّر كتبة سفر التثنية يشوع وهو يقتل سكان كنعان كما فعل مع قادة الجيش الآشورى الذين كانوا قد ظلوا يُرهبون المنطقة لما يربو عن مائتى سنة. وفى تلك الحال كان لابد للتوجهات القومية التى أُفصح عنها بأسلوب مقدس أن تنتهى بالدموع. كان لاهوتهم القتالى قد أعماهم عن الحقائق الواقعة على الأرض ولم يمض وقت طويل حتى حولت القوى العظمى اهتمامها إلى يهودا. فى عام ٦١١ ق. م سار فرعون مصر نخو الثانى مخترقا كنعان فى محاولة لمجابهة سطوة بابليون المتصاعدة. وفى استعراض فاشل للتحدى، اعترض يوشيا الجيش المصرى فى مجدو وقُتل على الفور (ملوك ٢– ٢٣– ٢٩).

ومنذ آنذاك، أصبحت مملكة يهودا شديدة الصغر مرتهنة للقوتين العظميين، مصر وبابليون، ومضت سياستها الخارجية تتحول اعتباطيا لصالح إحداهما أو الأخرى. أصر بعض الإسرائيليين على عدم إمكان هزيمة

مملكة يهودا لأن يهوه هو إلهها، ومضوا يحفزون حكامهم على توكيد استقلالهم. لكن النبى إرمياه وآخرين حاولوا إجبارهم على مواجهة الواقع- دونما جدوى. وبعد اثنى عشر عاما على وفاة يوشيا حدثت كارثة أكثر هولا بكثير. تمردت يهودا على سيادة بابليون، وفى عام ٥٩٧ ق. م أخضع نبوخذ نصر القدس، وسبى نخبتها- الملك، النبلاء، الكتبة، الجيش، الحرفيين - وأخذهم إلى بابل ونصّب ملكا ألعوبة على المدينة المقدسة. ثم بعد إحدى عشرة سنة عام ٥٨٦ ق. م، وبعد اندلاع ثورة طائشة، تم تدمير القدس عن آخرها، وإحراق معبد يهوه - معادله الموضوعى على الأرض - حتى لم يتبق له أثر.

وهكذا جعل كتبة التثنية من العنف خيارا. ففى الديانة اليهودية/ المسيحية أصبح من الممكن دائماً تأويل تلك الإصحاحات للمصادقة على السياسات المتعصبة. لكن لم يكن لهؤلاء القول الفصل لأن غيرهم من كتبة الأناجيل عملوا جاهدين على مجابهة ذلك النزوع الوثنى. وحينما أدمجوا نصوص J وE معا، عمدوا إلى استخدام صورة E لإلوهيم الأكثر تساميا من أجل تعديل رؤية J الصريحة ليهوه على أنه مجسد. فى سرد E لأول لقاء بين موسى والرب الذى يتحدث إليه من الشجرة المتوهجة، يكشف يهوه عن ذاته. إننى من أكون «Ehyeh asher ehyeh». وسيفسر اليهود والمسيحيون فيما بعد هذه المقولة على أنها تعنى أن الله هو الكينونة ذاتها. لكن لم يكن E يفكر بذلك الأسلوب الميتافيزيقى. وفقا لسرده، يحتمل أن الله كان يقول شيئاً أكثر بساطة بكثير - فإن هذه المقولة بالعبرية تعبر عن إبهام متعمد. مثلا، حينما نقول «لقد ذهبوا حيثما ذهبوا» فإننا نعنى أننا لا ندرى أين ذهبوا. من ثم حينما سأل موسى الله عمن هو، أجاب يهوه بما يعنى واقعيا.. لا عليك من

أنا! أى أنه لا يجوز أن يكون ثمة نقاش لطبيعة الله، أو أية محاولة للتلاعب به واسترضائه كما كان الوثنيون يفعلون حينما كان ينادون آلهتهم بأسمائها. وفيما بعد، كان اليهود يرفضون النطق باسم يهوه، فى اعتراف مضمر بأن أية محاولة للتعبير عن الحقيقة الإلهية ستكون محدودة لدرجة قد تصل إلى الزندقة.

وفيما توحى أوليات الكتابات أن موسى قد أبصر، بالفعل، الله على جبل سيناء، يؤكد الكتبة فى الأزمان اللاحقة أن هذا مستحيل، حينما توسل موسى أن يبصر «بهاء kavod» يهوه، أخبره يهوه أنه ليس بوسع مخلوق فانٍ أن ينظر إلى قداسة الله ويعيش: «ويكون متى اجتاز مجدى أنى أضعك فى نقرة من الصخرة واسترك بيدى حتى أجتاز ثم أرفع يدى فتنظر ورائى. وأما وجهى فلا تراه» (خروج ٣٣: ٢٢ – ٢٣). وفى مشهد أصبح فيما بعد شعارا رمزيا، حينما تسلق موسى الجبل ليبصر الله «كان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار. وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل. فكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا وموسى يتكلم والله يجيبه» (خروج: ١٩: ١٨– ١٩). يحتمل لموسى أن يكون قد وقف حيث كان يهوه موجودا، لكن لم تتأت له رؤية واضحة للمقدس. أوضح كتبة الإنجيل أن بهاء kavod الله لم يكن هو الله نفسه، كان وكأنه انعكاس متأخر لوهج حضور الله على الأرض، منفصل جوهريا وبأسلوب حاسم عن الحقيقة المقدسة ذاتها، التى ستظل خارج متناول مدى الإدراك البشرى.

لم يلق الإسرائيليون الذين رُحّلوا إلى بابليون عام ٥٩٧ معاملة سيئة. عاشوا معا فى جاليات بالعاصمة، أو فى مستوطنات جديدة بجانب النهر، وسمح لهم بدرجة من الحكم الذاتى. لكنهم كانوا مصدومين، مرتبكين

وغاضبين. أراد بعضهم الرد على البابليين بالمثل وتحطيم رءوس أطفالهم على الصخور. وشعر آخرون أن يهوه قد لحقت به هزيمة مخزية على يد مردوخ ولم يعد جديرا بولائهم. لكن بعد خمس سنوات من ترحيلهم، أبصر كاهن شاب اسمه حزقيال رؤيا مروعة لـ «بهاء» الله على ضفة نهر خابور: «كان فى سنة الثلاثين فى الشهر الرابع فى الخامس من الشهر وأنا بين المسبيين عند نهر خابور أن انفتحت السماء فرأيت رؤى الله» (حزقيال: ١- ١). كان تجليا مربكا مذهلا، لأنه كان من المستحيل تبين أى شىء بوضوح فى الظلام العاصف بالرعد والبرق والدخان والرياح. كانت صدمة السبى قد حطمت رؤية أتباع التثنية العقلانية. أصابت الرؤيا حزقيال بصدمة استمرت أسبوعا. لكن كان ثمة شىء واحد جلى. لقد تخير الله أن يهجر القدس ويقيم مع المسبيين. ومنذ ذاك الحين كان عليهم أن يعيشوا وكأن «المجد» الذى كان يقدّس بالمعبد من قبل، أصبح وسطهم بالفعل.

لكن، كيف كان سيتأتى لهم فعل ذلك؟ بدأت دائرة صغيرة من الكهنة المسبيين فى تشكيل إجابة، إعادة تأويل الرموز والقصص القديمة وذلك للإتيان بروحانية جديدة تماما. يسمى الباحثون تلك الإضافة الجديدة للإنجيل «P»: كان أهم مصادرها مجموعة قوانين القداسة (مجموعة منوعة من قوانين القرن السابع ق. م:) و«وثيقة الخيمة» (الهيكل النقال)، وتمثل الجزء الرئيسى من سرد P، والذى يصف الخيمة التى أقامها الإسرائيليون فى البرية لتأوى الحضور الإلهى. جمع P من هذه النصوص، ومن موروثات شفاهية أخرى، سفرى «اللاويين» و«أعداد» القانونيين، واللذين قلبا لاهوت التثنويين العدوانى بأن أوجدا سلسلة جديدة من الطقوس أساسها خبرة السبى والاغتراب. أضاف P أيضا مادة جديدة إلى سرد JED، بحيث أصبح تاريخ البشرية

قصة هجرات مأساوية، الواحدة تلو الأخرى: الطرد من الجنة، تجوالات قابيل، تفرق البشرية بعد التمرد فى بابل، رحيل إبراهام من بلاد الرافدين، فرار القبائل إلى مصر، والأربعين عاما بالبرية. فى سرد P التاريخى المعدل، لم تعد ذروة الخروج هى تنزيل التوراة، بل كانت هدية الحضور الإلهى فى «خيمة اللقاء». لقد أتى الله بشعبه إلى سيناء تحديداً كى: «أسكن فى وسط بنى إسرائيل وأكون لهم إلها» (خروج ٢٩: ٤٥). كان الفعل Shakan يعنى فى الأصل «يحيى حياة التجوال لسكان الخيام»، والآن سـ «يخيم» الله مع شعبه الرحل فى أى مكان بالعالم يتصادف وجودهم به. وبدلا من إنهاء القصة بغزوة يشوع الوحشية، ترك P الإسرائيليين على تخوم الأرض المقدسة. لم تكن إسرائيل شعباً لأنهم سكنوا بلدا بعينه، بل لأنهم عاشوا فى حضور الرب الذى رافقهم حيثما تصادف وجودهم. كان سبيهم الحالى مجرد آخر حلقة فى الاجتثاث المأسوى الذى كان قد منح إسرائيل بصيرة خاصة فى طبيعة المقدس.

أتى P بتجديد شرعى جرىء أتاح للمسبيين أن يخلقوا حسا بحضور المقدس بأن يعيشوا وكأنما هم كهنة يخدمون بمعبد القدس. حتى آنذاك، لم يتوقّع أبدا من عامة الناس الالتزام بالقوانين الطقوسية، وأحكام الطهارة والغذاء مثلهم مثل العاملين بالمعبد. لكن الآن وقد أصبح المسبيون أمة من الكهنة كان عليهم العيش وكأن الله يسكن بينهم وأن يخلقوا طقوسيًا هيكلا رمزيا غير مرئى. كان ثمة رابطة عميقة بين السبى والقداسة. كان الله قد أخبر الإسرائيليين أنه «قدُّوس qaddosh» وهو لفظ يعنى حرفيا، بالعبرية «منفصل»، «آخر» فالله مختلف جذريا عن الحقيقة الدنيوية العادية. والآن، كان على المسبيين أنه يصبحوا أيضاً «قدوسيين». كان التشريع الذى نحته P

مؤسسا على مبدأ الفصل المقدس. نجد يهوه، فى سفر اللاويين، يصدر تعليمات مفصلة عن الأضحيات، الغذاء، الحياة الاجتماعية الجنسية والتعبدية ليميز المسبيين عن أسريهم البابليين. وباستنساخهم حالة «الآخرية» سيتمكن المسبيون من الانتقال رمزيا، إلى عالم القداسة الذى يتواجد فيه الله: «واجعل مسكنى فى وسطكم ولا ترذلكم نفسى. وأسير بينكم وأكون لكم إلها وأنتم تكونون شعبى» (لاويين ٢٦: ١٠- ١١)، أى أن الله سيسير وسطهم كما سار ذات مرة مع آدم فى برودة المساء. وبذلك تصبح بابليون الفردوس الجديد لأن شعائر الفصل ستشفى الاغتراب عن المقدس الذى دام طويلا.

لكن للقداسة أيضا مكوّنا أخلاقيا قويا، لأنها تقتضى الاحترام المطلق لـ «الآخرية» المقدسة لكل مخلوق. وعلى الرغم من أنهم عزلوا أنفسهم عن الآخرين، فقد كان من غير الجائز للإسرائيليين احتقار الأغراب: «وإذا نزل عندك غريب فى أرضكم فلا تظلموه. كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك لأنكم كنتم غرباء فى مصر. أنا الرب إلهكم» (لاويين ١٦: ٣٤). كان قانونا مبنيا على التماهى والتراحم، القدرة على الشعور مع الآخرين. فإن الخبرة الشخصية للألم لابد أن تؤدى إلى تقدير معاناة الآخرين. حينما تحدث P عن الحب لم يقصد الحساسية العاطفية. كانت هذه مجموعة قوانين، لغتها تقنية متحفظة مثل أية أحكام قانونية. فى معاهدات الشرق الأوسط القديم كان الحب يعنى التعاون والولاء والدعم العملى. كان كتبة الإنجيل المبكرون قد أمروا الإسرائيليين بقصر الولاء القبلى (hesed) على نظرائهم من اليهود، لكن الوضع كان مختلفا مع P، حتى أننا نجد أحكامه بشأن الطهارة لافتة فى أنها لا تعتبر الآخرين مُدَنِّسين. وهكذا، كان من غير الجائز تجنب الأغراب، بل حبهم، فالنجاسة مصدرها النفس لا

الأعداء.

يصر P على أن من واجب الإسرائيليين احترام الحياة وتبجيلها. فإن الموت هو المدنِّس الأعظم. فمن المهين أن يأتى المرء إلى حضور الإله الحى دونما أن يقوم بطقس الطهارة البسيط بعد ملامسته لموت أحد مخلوقات الله. طوّر P فى قوانين الغذاء التى تحظر أكل الحيوانات «النجسة» نسخة مخففة من مثال اللاعنف ahimsa الهندى، ومثل كل الشعوب القديمة، لم يكن الإسرائيليون يعتبرون طقس ذبح الحيوانات قتْلاً، فقد كان الاعتقاد الشمولى هو أن ذبحها يمنحها الحياة بعد الموت، وكان من المعتاد حظر أكل حيوان لم يتم تكريسه بهذا الأسلوب الشعائرى. أباح P للإسرائيليين أكل الحيوانات الأليفة من قطعانهم. فقد كانت تلك حيوانات «طاهرة» أو «نظيفة»، أعضاء بالجماعة، بل إنه كان يجب السماح لتلك الحيوانات أثناء حياتها أن تستريح يوم السبت، كما حُظِر إيذاؤها بأية وسيلة.

لكن لا يجوز أبدا قتل الحيوانات «غير النظيفة – الكلاب، الظباء، وحيوانات البرية الأخرى وأيضا، كان من المحظور إيقاعها فى الشراك، استغلالها، أو أكلها تحت أية ظروف. لم يكن هذا بسبب أنها «قذرة»، فقد كان من المسموح لمسها وهى حية، حيث لا تصبح «نجسة» إلا بعد موتها. كان القانون الذى يحظر ملامستها ميتة يحمى تلك الحيوانات حية: لأنه ونظرا لأنه كان من غير المسموح سلخها أو تقطيعها، فلم يكن من المجدى قنصها أو إيقاعها فى الشراك. ولنفس السبب فإن تلك الحيوانات التى كانت مصنفة «بشاعات» (sheqqets) كان لابد من اجتنابها وهى ميتة. كانت تلك المخلوقات الصغيرة المرتحلة ضعيفة ومعرضة للأخطار، ولابد أن تستثير التراحم، ولأنها ولودة تتكاثر سريعا فقد كانت تتمتع بتبريكات الرب، من ثم كان الإضرار بها

«بشاعة». لقد بارك الله تلك الحيوانات «غير النظيفة» يوم الخلق، وأنقذ الحيوانات الطاهرة والنجسة أثناء الطوفان. لذا، فإن الإضرار بأى منها إهانة لقداسته.

هذا هو السياق الذى علينا أن نقرأ من خلاله أشهر أعمال P، أى ترنيمة الخلق فى الإصحاح الأول من سفر التكوين. ومثل جميع قصص نشوء الكون القديمة، كان هدف الترنيمة علاجيا فى المقام الأول. كان لابد وأن الإسرائيليين فى بابل قد شعروا بالألم العميق وهم يشاهدون طقوس العام الجديد الرائعة فى إساجيلا التى كانت تحتفى بانتصار الإله مردوخ على الإلهة تيمات. كانت قصة P عن نشأة الكون، أولا ردا رقيقا على الديانة البابلية، لابد وأنه عمل كترياق لأرواح المسبيين الجريحة. فقد يبدو وأن مردوخ قد هزم يهوه، لكن الحقيقة هى أن يهوه أكثر قوة بكثير. ومثل جميع قصص النشوء القديمة، لم يكن ثمة خلق من العدم، بل إن إلوهيم أتى بالنظام إلى الشواش أو العماء: «فى البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله ترف على وجه المياه» (تكوين ١: ١- ٢). كان لابد وأن يستدعى الغُمر (المحيط) الإلهة تيمات، لكن بدلا من أن يقدمها P إلهة مخيفة، جعل منها مادة الكون الخام. لم تكن الشمس والقمر والنجوم آلهة، بل مخلوقات وظيفية تحدد الوقت وتأتى بالنور إلى الأرض. أما «تنينات البحر الضخمة» فلم تعد أعداء تهدد البشر مثل يام ولوتان بل مجرد مخلوقات الله. لم ير ضرورة قتلها أو شقها نصفين، بل باركها فى نهاية اليوم. وبالتقابل مع نصر مردوخ الذى كان لابد من إعادة إحيائه وتنشيطه كل عام لجعل الكوْن قابلا للحياة، فإن يهوه أنهى مهمته لخلق الكون فى مجرد ستة أيام وأصبح باستطاعته أن يستريح فى اليوم السابع.

كانت تلك قصة خلق خالية من العنف، لابد وأن جمهور P لدى سماعهم الكلمات الاستهلالية «فى البدء خلق الله السماوات والأرض» كانوا يتوقعون قصة لمعارك رهيبة. لكن P أدهشهم: لم يكن ثمة حرب أو قتل. وبالتقابل مع مردوخ، لم يقاتل إلوهيم حتى الموت كى يخلق كونا منظما، بدلا من ذلك، فقد أطلق ببساطة، عدداً من الأوامر: «ليكن نور» و«لتنبت الأرض عشبا ويقلا ويُبذر بذرا وشجرا ذا ثمر يعمل ثمرا كجنسه بذرهُ فيه على الأرض. وكان كذلك» (تكوين ١: ٢) و«لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل. وتكون لآيات وأوقات وسنين. وتكون أنوارا فى جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك» (تكوين ١: ١٤- ١٥)، وفى كل مرة، وبدون أى صراع بإطلاقه «كان كذلك». لم يلجأ P إلى الرطانة. فى اليوم الأخير للخلق «رأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا» (تكوين ١: ٣١) . كان P يعلم أن بعض المسبيين يكيلون اللعنات على البابليين بشكل منتظم، لكنه أضمر فيما كتبه أن هذا ليس هو الأسلوب الصحيح لأن الله بارك كل شىء صنعه. ولابد أن يكون الجميع مثل إلوهيم، يستريحون بهدوء يوم السبت ويباركون الخلق دونما استثناءات حتى البابليين إن أمكن.

لم يكن المقصود بهذا تقديم سرد حرفى لأصول الحياة الفيزيقية. كان P يقول شيئاً أكثر علاقة بحياة المسبيين. وإذا كانت قصة الخلق التى كتبها J كانت أسطورة مؤسسة لمعبد سليمان، فقد كانت قصة P الأسطورة المؤسسة للمعبد الافتراضى الذى كان يحث المنفيين على بنائه من خلال طقوس الفصل الجديدة. كان خلق يهوه للكون تيمة مهمة فى شعائر العبادة بمعبد سليمان، وكان ينظر إلى المعبد فى الشرق الأدنى على أنه نسخة رمزية من الكون. من ثم، فقد كان بناء المعابد يتيح للبشر المشاركة فى عملية الإتيان بالنظام إلى

العالم التى قام بها الآلهة، ومن هذا المنطق فإن ترنيمة الخلق التى كتبها P كانت مرتبطة عن الهيكل بوصفه التفصيلى لإنشاء ضريح الخيمة. فبعد أن أصدر الرب أوامره التفصيلية لخيمة الهيكل النقال، نجد وصفا يتسم بالتكرار والجهد لموسى وهو ينفذها، جزءا جزء وفى كل مرحلة كان موسى ينظر إلى «العمل كله» و«يبارك» الشعب، مثلما كان يهوه يفعل فى نهاية كل يوم خلق. بُنى ذلك الحرم فى اليوم الأول من الشهر الأول للسنة، وملأت «روح الله» مهندس الحرم بصليل، بـ «الحكمة والفهم»، وأكدت كل من ترنيمة الخلق ووثيقة «الخيمة المعبد» على أهمية راحة السبت. كان معبد القدس، نسخة الإسرائيليين من الكون الذى نظمه يهوه، قد تم تدميره، وأبيد عالمهم، لكن كان بإمكانهم إقامة هيكل رمزى فى برية السبى يعيد النظام إلى حياتهم المضطربة المغتربة. وكان من شأن هذا أن يساعدهم على استرداد حميمية الجنة لأن معبد الإسرائيليين كان رمزا للتناغم قبل أن يفسد آدم العالم.

لم تكن أسطورة الخلق التى كتبها P هى القول الفصل فى الموضوع، ولم يكن من المتطلب من أى أحد أن «يعتقد» فيها ويستبعد كل الأخريات. مضت قصص نشوء بديلة تزدهر فى إسرائيل. وقرب نهاية سنوات السبى السبعين فى بابل قام نبى مجهول، يعرف عادة باسم أشعياء الثانى، بجمع القصص القديمة لحرب يهوه ضد تنين البحر وذلك ليأتى بـ «الراحة» إلى شعبه. مرة أخرى، لم يرو أشعياء قصته عن الخلق كقصة واقعية لنشأة الكون، لكن لإلقاء الضوء على المعنى الخبئ للتاريخ. فى بداية الزمان، قام يهوه بذبح أعدائه، وشقَّ البحر الكونى نصفين و جفف مياه الهوة الكبرى، تماما مثلما شق بحر المصريين كى يعبر من خلّصهم. والآن، فسينُهى السبى ويعود بالمسبيين إلى وطنهم. نجد فى سفر إشعياء أول نص فى الإنجيل لا لبس فيه على التوحيد:

«أليس أنا الرب ولا إله غيره إله بار ومخلص. ليس سواى» (أشعياء ٤٥: ٢١- ٢٢). لكن كان هذا النص بعيدا كل البعد عن «لا عنف» P. تخيل أشعياء يهوه يسير بعدوانية فى أنحاء العالم مثل المحاربين المقدسين فى الموروث الإسرائيلى المبكر. ومرة أخرى ارتبط الإصرار الجازم على وجود رمز واحد للمقدس بتصوير صريح واحد للإرادة القومية وتجسيدها وتدمير أعدائها. لا يشعر يهوه سوى بالاحتقار الشديد للآلهة الأخرى: «ها أنتم من لا شىء وعملكم من العدم» (أشعياء ٤١: ٢٤). كما أن جميع الأغيار سيدمرون ويصبحون عدما، ينثرون مثل القش والعصافة فى الرياح. وحتى الحكام الأجانب الذين ساعدوا إسرائيل، فسيسجدون منبطحين لدى أقدامهم يلعقون التراب.

تتداخل فى تلك النبوءات الضارية، وفقا لنصها الموجود، أربع أغنيات، تعبق بالتراحم، واللاعنف والاهتمام الكونى، يغنيها فرد يسمى نفسه خادم يهوه، لا نعرف من كان، لكن من الواضح أنها تعكس مثالا كان فاعلا وسط جماعة المسبيين يختلف تماما عن و حدانية أشعياء العدوانية. كانت مهمة الخادم ترسيخ العدالة فى أنحاء العالم، لا بالقوة بل من خلال حملة سلمية تراحمية:

وضعت روحى عليه

فيخرج الحق للأمم

لا يصيح ولا يُرفع ولا يسمع فى الشارع صوته

قصبة مرضوضة لا يَكسر

وفتيلة خامدة لا يطفئ

إلى الأمان يُخرج الحق

(إشعياء ٤٢- ١- ٣)

حينما يهاجَم، يدير الخادم خده الآخر ولا ينتقم «السيد الرب فتح لى أذنا وأنا لم أعاند. إلى الوراء لم أرتد. بذلت ظهرى للضاربين وخدى للناتفين. وجهى لم أستر عن العار والبصق» (أشعياء ٥٠: ٥- ٦). ورغم أنه محتقر ومرفوض إلا أنه وفقا لوعد الرب فى النهاية «هو ذا عبدى يعقل يتعالى ويرتقى ويتسامى جداً» هكذا يقول الرب (إشعياء ٥٢- ١٣). وسيُدرك الناس أن رضاه واستسلامه قد شفاهم. يعد يهوه أنه سيصبح «نورا للأمم لتكون خلاصى إلى أقصى الأرض» (أشعياء ٤٩: ٦).

تحققت نبوءات أشعياء. حينما هزم خسرو، ملك فارس الإمبراطورية البابلية منح المسبيين جميعهم خيار العودة إلى أوطانهم. كان غالبية المسبيين اليهود قد تأقلموا على العيش فى الشتات، وقرروا البقاء فى بابل، لكن فى عام ٥٣٠ قررت جماعة من اليهود العودة، وبعد عشر سنوات تخللتها معاناة ومحن كثيرة، أعادوا بناء المعبد. كانت العودة صعبة: لم يكن المعبد الثانى بمثل روعة معبد سليمان الذى يحكى عنه، وكان على المنفيين العائدين أن يجابهوا معارضة جيرانهم الوثنيين وأيضاً الإسرائيليين الذين لم يُرحَّلوا ووجدوا أن أفكار العائدين الدينية غريبة وانعزالية.

كان الإنجيل العبرانى شبه مكتمل: كان يدعو إلى التسامح واحترام الاختلاف من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى الشوڤينية الصارخة، كان نصا من الصعب فك ألغازه، كما أنه من غير الواضح ما إن كان يمثل، فى تلك المرحلة،

أية أهمية دينية رسمية، أو ما إن كان يستخدم فى الشعائر. كان عزرا أحد الشخصيات الانتقالية. كان يعمل ناسخا بالبلاط الفارسى، وكانت أمنيته قد أصبحت «تفحص توراة يهوه ودراسة القانون والتشريعات فى إسرائيل وتدريسها» فى عام ٣٩٨ ق م، أرسله ملك فارس إلى القدس وفوضه فى فرض توراة موسى بالقدس كقانون للبلد. كان الفرس يراجعون الأنظمة القانونية للشعوب التابعة للتأكد من توافقها مع أمن الإمبراطورية، ومن المحتمل أن عزرا كان قد توصل إلى تسوية مؤقتة مرضية بين القوانين الموسوية والفارسية.

حينما وصل عزرا إلى القدس انزعج لاكتشافه أن البعض، وبدلا من الحفاظ على الفصل الذى كان P قد أمر به، قد تزوجوا بنساء أجنبيات. فى أول أيام السنة الجديدة أحضر عزرا التوراة إلى الميدان الواقع أمام مسرب الفيضان ومضى يقرأ بصوت مرتفع وهو يترجم ويشرح المعنى بحيث فهم الناس ما تلاه عليهم فيما مضى بعض اللاويين من صغار الكهنة يدورون وسط الحشود ويكملون تعليقاته. لا سبيل لدينا للتأكد من النص الذى كان يقرؤه، لكن أياً ما كان، فقد تسبب فى أن يذرف الناس الدموع. كان من الواضح أنهم لم يسمعوه أبدا من قبل، وأن تلك المطالب غير المألوفة قد ساءتهم. بإمكان القراءة المُتقنة لنص مقدس مكتوب أن تكون مُروّعة ومنذرة. طلب منهم عزرا، بإصرار، ألا يبكوا فقد كان ذلك شهر الحصاد Sukkoth اليهودى، وكان القانون يأمر الإسرائيليين بقضاء تلك الأسابيع فى «سقيفات» إحياء لذكرى قضاء أسلافهم أربعين عاما بالبرية. مرة أخرى، كانت تلك إحدى التعاليم الجديدة الغريبة: كانت طقوس المعبد الأول تحتفى بشهر الحصاد بأسلوب مختلف. وعلى الفور، اندفع الناس إلى الجبل لإحضار أفرع

أشجار الزيتون والآس والصنوبر والنخيل، وسرعان ما انتشرت تلك الملاذات المورقة فى أنحاء المدينة. كان ثمة جو احتفالى وتجمع الناس كل مساء للاستماع إلى شرح عزرا.

لكن، فيما بعد، عقد عزرا اجتماعا أكثر وقارا فى الميدان أمام المعبد الجديد، ووقف الناس أثناءه يرتعدون فيما كانت سيول أمطار الشتاء الغزيرة تغرق المدينة، واستمعوا إلى عزرا يأمرهم بإقصاء زوجاتهم الأجنبيات. كانت عضوية إسرائيل الآن قد اقتصرت على العائدين من المنفى Golah، وعلى هؤلاء الذين يخضعون للتوراة، القانون الرسمى للبلد (يهودا). كان عزرا قد أوّل النص المقدس بأسلوب حصرى انتقائى، مؤكدا على واجب الفصل، ومتجاهلا طلب P الملزم للإسرائيليين بمعاملة الأغراب بـ «حب» واحترام. ولأن الإنجيل يتكون من نصوص متناقضة كثيرة، ظلت قراءتنا له حتى الآن انتقائية. لكن، من المأساوى، أن القراءة الانتقائية للنصوص المقدسة، من أجل فرض وجهة نظر بعينها، أو تهميش الآخرين، ظلت إغراء دائماً لأتباع الديانات التوحيدية.

لكن عزرا أيضا أوضح أن التوراة تتطلب تأويلا. وكانت تلك هى المرة الأولى التى نسمع فيها تلك النصوص المتناثرة المتنوعة التى تشكل التوراة كنص مقدس له قوة مُلزِمة. كانت قراءة عزرا لدى مسرب الفيضان علامة على بداية اليهودية الكلاسيكية، دين لا يركز فقط على تلقى التنزيل وحفظه بل على إعادة تأويله الدائمة. حينما فسر عزرا النص، لم يكتف بتلاوة التوراة التى أعطيت لموسى فى الماضى البعيد، بل إنه أوجد شيئا جديدا، وغير متوقع. كان الكتبة الإنجيليون أيضا قد عملوا بنفس الأسلوب وأدخلوا تعديلات جذرية على النصوص والموروثات التى وصلت إليهم من أسلافهم. فى اليهودية

الكلاسيكية، لم يُنظر إلى التنزيل بصفته شيئا حدث مرة وإلى الأبد، بل على أنه عملية مستمرة واقعة لا يمكن أن تنتهى لأنه ثمة شيء جديد يكتشف دائماً. لكنها إذا قرئت مثل أى نص آخر، فبإمكان التوراة أن تتسبب فى التشوش والإزعاج. لابد أن تُسمع فى سياق الطقوس، مثل شعائر الحصاد Sukkoth، التى تفصل القراءة عن الحياة العادية وتضع الجمهور داخل أطر عقلية مختلفة. وكان لابد أن يرافق أية قراءة للتوراة تعليق فى مثل أهمية النص نفسه. اكتشف اليهود أن الخطاب الدينى كان تأويليا بشكل جوهرى. لم يتقبل عزرا النص بسذاجة بل عزم على تحريه وتفحصه (Ii-drosh). سيسمى تفسير النصوص اليهودية midrash، المشتقة من لفظ darash، أى «يبحث» «يتحرى» «يذهب لتقصى شيء» لم يكتشف بعد. سيصبح التحرى والبحث طقساً جديدا يستدعى معه المقدس، ويُبقى دائما على دلالات التكريس، الارتباط العاطفى، والتفحص المترقب.